التعبير الصوفي ومشكلته في مرآة النقد

الدكتور وفيق سليطين•

الملخص

يعدُّ كتاب د. عبد الكريم اليافي " التعبير الصوفي ومشكلته " علامة متقدمة في سياق الدراسات الجامعية التي عُنيت بدراسة التعبير الصوفي وبحث خصائصه الذاتية؛ إذْ يعود تاريخ نشر العمل المذكور إلى سنة (١٩٦٣)، عندما كان جزءاً خاصاً من كتاب اليافي الموسوم بـــ " دراسات فنية في الأدب العربي ".

يتناول هذا البحث عمل اليافي المشار إليه بالتعريف، والمناقشة، والنقد، والاستخلاص، وهو ـــ إذ يوجّه إلى تعرّف قيمة الكتاب ـــ يكشف، في الآن ذاته، عن محددات الطابع التعليمي الذي وسم التناول، وقيّده في إطار استراتيجيته الخاصة. ومن هنا تتأتى أهمية المساءلة النقدية لجوانب العمل، في منحى فتح إشاراته المقيّدة على آفاق التجاوز المتلامحة وراء طوابع التقييد المدرسي، وفي منحى تخطّي إجراءات المسح، والتتبّع، وإفراد الخيوط الظاهرة، نحو الغوص، عميقاً، وراء الأهداف المباشرة: الإبلاغية، والتوصيلية، التي حكمت دراسة اليافي في معالجة أسلوبي التعبير الصوفي: الأسلوب التجريدي، والأسلوب الرمزي، على نحو ما تمخضه النتائج المثبتة في ختام البحث.

كلمات مفتاحية: التعبير، الصوفي، التجريد، الرمز، البيداغوجية.

المقدمة

ينعقد هذا البحث لتناول واحدة من التجارب التي انطوت على بحث شيء من هذا القران بين الشعر والتصوف، أو التفتت إليه وأولته قدراً من العناية، بحسب المقتضيات والغايات التي تؤمّها وتنهد إليها.

• ـــ أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة تشرين، اللاذقية، سورية.

تاريخ الوصول: ١٤/١١/١٣٩١هـ.ش= ٠٢/٠٢/٢٠١٣م تاريخ القبول: ٠٨/٠٣/١٣٩٢ هـ.ش= ٢٩/٠٥/٢٠١٣م

هذه التجربة هي تجربة الدكتور "عبد الكريم اليافي" الذي خصّص قسماً من كتابه الموسوم بـــ "دراسات فنية في الأدب العربي" لبحث موضوع "الرمز في الشعر العربي"، وقد شغل ما جاء تحت هذا العنوان الصفحات الممتدة بين (٢٥٥) و(٤٣٣) من صفحات الكتاب المشار إليه في طبعته الجديدة الصادرة عن مطبعة دار الحياة عام ١٩٧٢ م، علماً أن الكتاب كان قد صدر، قبل ذلك، في طبعته الأولى عام ١٩٦٣ م. وبعد عقود من الزمن أعاد "اليافي" تفريغ هذا القسم، الذي نتوقف عنده، في كتاب مستقلّ جعله بعنوان: "التعبير الصوفي ومشكلته" [١].

انطلاقاً من الإشارات الابتدائية، التي تتصدّر الطبعة، لا يخفى أن الكتاب هو كتاب جامعي، ينصرف القصد فيه إلى غايات تعليمية، تؤكدها فصول الدراسة والخطّة التي تحكم تنظيم أجزائها. ويأتي، قبل ذلك، ما ينصُّ عليه المؤلف في " توطئة " البحث بقوله: " ولا ندّعي أننا استنفدنا البحث فهو واسع لا ساحل له، ولكنّا ندّعي أننا جلونا أموراً جديدة فيه كنا بسطناها قبلاً في كتابنا "دراسات فنية في الأدب العربي" منذ سنة ١٣٨٢ه ـــ ١٩٦٣ م. ولعلّها تعين المريد على تفهم تلك الأساليب، وتزوّده بالقدرة على تبيّن مقاصدها وإنارة بعض مشكلاتها".

يتناول "اليافي" في بحثه هذا جانبين متقابلين من التعبير الصوفي، هما: الأسلوب الرمزي والأسلوب التجريدي،ويتولى بيان ذلك في الشعر الصوفي على نحو خاص، وإن كان يعرض، قبل ذلك في حديثه عن الرمز، لشواهد من الكلام المنثور، يتوقف عندها لمزيد من الدعم والتأكيد والاستخلاص.

على المستوى النظري، يعنى "اليافي" بإيراد بعض التعريفات الخاصة بالرمز، كما يعنى بإبراز الفروق بين الرمز واللغز، وبين الألغاز والملاحن، وبين الرمز والإشارة، ويفرد لذلك صفحات واسعة، يدرج فيها شواهد مختلفة من التراث العربي شعراً ونثراً. ولا شك أن هذا التوسع في العرض يأتي على حساب التعمّق في بحث المشكلة الأساسية، مشكلة التعبير الصوفي، اكتفاءً بما تتطلبه الغاية التعليمية. وذلك ما يبدو أيضاً من خلال التوسع في الكلام على وجوه البلاغة، أو أقسام من البيان والبديع، يتخللها عرض

---

[١] ـــ اليافي، عبد الكريم، *التعبير الصوفي ومشكلته*، د. ط، دمشق: منشورات جامعة دمشق، ١٤٢٠ ـــ ١٤١٢ ه، ١٩٩٩ ـــ ٢٠٠٠م.

لوفرة من الشواهد المناسبة. وهو ما يجعل التمدّد الأفقي يطغى على مقتضيات الحفر الرأسي والتركيز العمودي في تناول مركز البحث الخاصّ بمشكلة التعبير الصوفي.

وعلى المستوى التطبيقي، نجد مصداقاً لذلك في توقف الباحث عند الشواهد الخاصة بالألوان والتقسيمات ووجوه الاستخدام، التي يأتي عليها، ويتناولها بغير قليل من الشرح والتفصيل. ومنها شواهد موصولة بعادات الشعراء العذريين في كتمان الحبّ، وأخرى تلزم الشعر السياسي، الذي سلك فيه الشعراء مسلك الإخفاء والستر، فجاءت أقوالهم في شكل الرمز، ولا سيما في استهلال القصائد، الذي يعدّ تهيئة للأغراض، كقول " عبيد الله بن قيس الرقيات ":

بشَّر الظبي والغرابُ بسعدى مرحباً بالذي يقول الغرابُ

وهو مطلع لقصيدة يعرّض فيها بعبد الملك بن مروان، ومثلها أيضاً قصيدة يزيد بن ضبّة، التي يصوّر فيها حاله مع هشام بن عبد الملك، فيستهلّها بقوله:

أرى سلمى تصدُّ وما صددنا وغيرَ صدودها كنّا أردنا
لقد بخلتْ بنائلها علينا ولو جادت بنائلها حمدنا
وقد ضنّتْ بما وعدتْ وأمستْ تغيّر عهدها عمّا عهدنا

وهكذا يمضي اليافي، متدرجاً، في بسط موضوعه، وفي بناء أعمدته، وشبك لبناته، حتى يستوفي كلامه، من بعد، على جانبي التعبير الصوفي: التجريد ممثلاً بالحلاج، والرمز ممثلاً بابن الفارض.

الاستراتيجية البيداغوجية وحدود التناول:

يصدّر اليافي أولاً رأي هيغل الذي ينصّ على أن " الرمز الصرف إلغاز في ذاته. ومعنى ذلك أن الوصف الخارجي الذي يشفّ عن المعنى العام يبقى متميزاً عن هذا المعنى تميّزاً يحوم الشك معه دائماً حول حقيقة الدلالة التي ترتبط بالشكل" [1]، ويسوق في مكان آخر ما يذهب إليه بعض المفكرين الحديثين من إنشاء الفرق بين الإشارة والرمز، باعتبارهم الرمز حاصلاً عندما يقع شبه بين المرموز به

[1] ــ اليافي، عبد الكريم، **التعبير الصوفي ومشكلته**، ص١.

والمرموز إليه، ومنهم من يقابل بين الرمز والإشارة، من حيث إن الرمز يمثّل تصوّراً، بينما تدلّ الإشارة "على أمر مفرد أو شيء معيّن أو تحفز على فعل" [١].

وعلى الرغم من هذا الالتفات إلى إبراز الفروق بين التسميات الاصطلاحية، فإن الباحث ينصّ على تجاوزها في صدوره عن نظرة عامة تتسع بدلالة الرمز، متجاوزة تلك الفروق والتحديدات الخاصة التي تميزه من غيره الذي يلتقي به في الإطار التعريفي العام. فبعد أن يورد رأي ابن عربي القائل: " إن الرموز والألغاز ليست مرادة لنفسها، وإنما هي مرادة لما رمزت إليه ولما ألغز فيها [٢]، يقول: " ونحن نتناول موضوعنا من هذه الوجهة، فننظر إلى التعبير عن الأفكار والمعاني بأسلوب من الأساليب غير المباشرة، ونتسمَّح باستعمال الرمز، ونتوسع بدلالته متجاوزين نطاقه الخاصّ " [٣]، ويكرّر ذلك على سبيل التأكيد بقوله: "فنحن هنا نجري بهذا الاعتبار مع ابن عربي، ومع الفيلسوف هيغل الذي قدّمنا قولاً له في هذا الشأن، ومع المفكّر الأمريكي الحديث توماس مونرو في عدم تفريقه بين الرمز والإشارة عند بحثه لقضية الرمز" [٤].

ومن البيّن أن ما آثره اليافي وجرى عليه في هذا النهج هو من متعلقات الاستراتيجية البيداغوجية، التي تحكم التناول، وتطوّعه لأغراضها الخاصة، وغاياتها المؤمّلة، التي تلفت إليها، وتعنى بإبرازها، في جهد واضح يؤكد مسعاه، بمقدار أو آخر، فوق أهمية السبر التخصصي، والاستقصاء البحثي، والتحديد المفهومي.

إن حرص اليافي على بسط المقدمات، وعلى الانتقال المتدرج بين الفقرات، مع استيفاء متطلبات الشرح والتعليل في التمثيل لصور البيان وأساليب الاستخدام وما يصاحب ذلك من نظرات في الشواهد المختلفة، التي تمثل آنات متتابعة وقطاعات متجاورة من التراث الأدبي والفكري، يتناولها بالإيضاح والشرح والتعليق، كل ذلك جعل اللغة الواصفة أو الشارحة تتمدّد بقصد الإفهام وتجلية

---

[١] ــ **المصدر السابق**، ص١٧.

[٢] ــ **نفس المصدر.**

[٣] ــ اليافي، عبد الكريم، **التعبير الصوفي ومشكلته**، الصفحة السابقة نفسها.

[٤] ــ **المصدر السابق**، ص ١٧ ــ ١٨.

السياق، وهو ما قاد، على نحو ما، إلى تعليق الجهود الحفرية، في الاستثمار وتركيب المعطيات، لإنتاج أسئلة نوعية تمضي بالبحث إلى الكشف عن المناطق الغائرة والتحويلات العميقة التي يفتح عليها الرمز الشعري عموماً، والرمز الصوفي خصوصاً[١]، بل ربما كان كفّ مثل هذه الأسئلة، اكتفاءً بالإلماحات السريعة ـــ وهي على جانب من الأهمية ـــ مطلوباً بدلالة ما تضمره أو تعلنه استراتيجية البحث من ضرورات الوفاء بحقّ الجانب التعليمي، من خلال التأطير المدرسي في دوائر العرض والتقديم المتسلسل لحلقات الموضوع في منحى التحول من العام إلى الخاص، ومن الشعري إلى الصوفي، بحيث تتضح معه كيفية تأسيس الثاني منهما على الأول، وتتبدّى مكامن الوصل والقطع بين الجانبين في عمليات الإبلاغ التي تُسلس قياد الموضوع، وتوفر إمكانات الاستجابة لأفق التلقي العام.

في معرض التعريف بمصطلحات المتصوفة، يثبت الباحث بعض أقوالهم، مستعيناً بما جاء في الرسالة القشيرية، ثم ينتهي إلى التعليق على تلك الأمثلة بقوله: " وهكذا تتعاقب المعاني المجرّدة والصور الحسية في كلام المؤلف، "ويستعين النثر في الحين بعد الحين بالشعر، لتقريب المقصود من الأفهام " **(٢).**

وبعد شرح لعدد من الألفاظ الاصطلاحية، وتوضيح لطرائق الصوفية في الاعتماد على التمثيل الحسي المأخوذ من العالم الخارجي، يستخلص اليافي "أن المتصوفة كثيراً ما يعتمدون الصور الحسية، ليعربوا، بالتنويه بها، عمّا يقاربها من تجاربهم المعنوية المحض. وأكثر هذه الصور مأخوذ من مجال حبّ الإنسان للإنسان، ومن ملذات الحياة الدنيا، وإن كان مرادهم منها يتجاوز ذلك كلّه" **(٣)**.

ومثل ذلك أيضاً ما يقرره في أثناء كلامه على التجريد عند الحلاج، في مقابل الرمز عند ابن الفارض. يسوق للأول قطعة من فكره الصوفي القائل بالتنزيه، ويتخذ منها شاهداً على أسلوبه، ثم يعلّق عليها فيقول: " أرأيتَ إلى هذا النصّ الفكري المجرّد كم يحرص مطلق الحرص على التنزيه، ويمنع أي ملابسة أو اتصال بالموصوف، ولو بالأوهام أو بمجرد الألفاظ والضمائر، فكيف بالصور والتشابيه

---

[١] ـــ لمزيد من الاطلاع، ينظر:

ـــ جودة، عاطف، **الرمز الشعري عند الصوفية.**

ـــ منصف، عبد الحق، **أبعاد التجربة الصوفية.**

[٢] ـــ اليافي، عبد الكريم، **التعبير الصوفي ومشكلته**، ص٤٨.

[٣] ـــ **المصدر السابق**، ص٥٢.

وغيرها!" [١]. وبالمقابل نراه، إذْ يحاول أن يجلو خصائص شعر ابن الفارض، يسجل انطباعاته في كلام هو قطعة من الإنشاء الأدبي، يقول فيها: "في قصائد ابن الفارض الصوفية تنطلق عاطفة ملتهبة بالحبّ، عبقة بالوله، تضوع كما يضوع الأريج الفاغم يستحوذ على النفس وينقلها إلى جواء جديدة لا تفهم إلا بالنظر إلى أنها صوفية. فهو لا يصف بالتدقيق أحواله النفسية، وإنما يغنيها غناءً، ويحاول أن يوحي إلينا بها في هذا الغناء المحترق المتولّه" [٢].

ترى ألا نجد، من خلال ما تقدّم، أن تجربة اليافي هذه، على أهميتها، نحت منحى المسح الظاهري في تناول موضوعها ؟ وأن صاحبها اكتفى بتقديم إجابات وتوضيحات أكثر من عنايته بإثارة الأسئلة عن طبيعة التعبير الصوفي وعن أبعاده ورؤاه الخاصة وانشغالاته القصوى؟

إذا صحّ ذلك، عموماً، كان لنا أن نسجّل على الأداء الرفيع للأستاذ أنه ـــ على الرغم من توفّره على الأخذ بالمنطلقات الموجهة للدراسة، وعلى الاستجابة للغايات المحكومة بها ـــ لم ينطلق وراء هذه الحدود، و لم يذهب بعيداً إلى الغوص على صلة الشعر الصوفي العميقة بالمنابع الحيوية التي تشدّ الإنسان نحو الأصول الثاوية في الغور خلف ركام اليومي والمعتاد، بحيث يجعل من صمت اللغة الصوفية، أو التعبير الصوفي كما يقول، تعليقاً لمجراه، وانفتاحاً على ما بعده من سرّ الوجود المحتجب وأبعاده الغائرة[٣].

التناول الخارجي المحيطي ودلالاته العامة:

يغلب على دراسة اليافي طابع التناول الخارجي، الذي يجري فيه التركيز على الجوانب المختلفة التي تؤطّر الإنتاج النصيّ. وفي هذا المسعى البحثي الإطاري يترجّح البعد التعريفي الخاصّ بإبراز العوامل المؤثرة في نشوء الظاهرة واستوائها، ومن ثمّ يكون الإمساك بمنحى خطّها التطوري وأشكال اعتمادها اللاحقة. فهو، إذاً، ضرب من التناول غايته الإلمام بالمحيط الثقافي للنصوص والظواهر، وبما دار حول

---

[١] ـــ **المصدر السابق**، ص٧٠.

[٢] ـــ **الصدر السابق**، ص٨٤.

[٣] ـــ ينظر: سليطين، وفيق، **الشعر والتصوف**، ص ١٣ ـــ ١٤.

ذلك من أشكال الصراع على السلطة والحقيقة، مما كان له الأثر البيّن في تشكّل الظاهرة المدروسة، وفي إنتاج شروط استقرارها، وتعليل طرائق حضورها واستخدامها.

على هذا النحو يبدأ صاحب كتاب " التعبير الصوفي ومشكلته "بعرض تأريخي لظاهرة الاستخدام الرمزي، فيتناول بحثها من داخل حقل الثقافة الأدبية أولاً، موضّحاً سبل التعبير الرمزي، بما يجمع بينها ويفرّق، ثم يتجه إلى تحديد الأسباب الداعية إلى هذا الاستخدام. وهنا يجري التنبيه على الخصوصيات المرجعية، التي شهدت ولادة الظاهرة أو احتضنتها ووقفت وراء نموّها وازدهارها.

من أمثلة ذلك أنه يستعين بإيراد كلام السيوطي في " المزهر " على الألغاز والملاحن، وبما نصّ عليه علماء البيان والبديع، وبما ذكره صاحب " المثل السائر " في الحكم على المعاني وتأويلها. وفي تعليل أسباب الكتمان وإيثار الإشارة على العبارة يلجأ إلى مدارس التحليل النفسي، فيتوقف عند "كارل غستاف يونغ" ويبسط بعض ما قال به في قضايا الشعور واللاشعور. ثم يعرّج على استخدام الرمز عند بعض الفرق الدينية الباطنية بقصد التقية والتستّر، فقد كانت عندهم كما يقول " ألفاظ يستعملونها بينهم هي في الحقيقة رموز يلغزون بها إلى مقاصدهم. وقد أشار إلى " هذه الرموز الغزالي في كتابه (فضائح الباطنية وفضائل المستظهرية)"[١]. وهكذا يمضي في تعقب فكرة طيف الخيال عند بعض الشعراء، ليبين كيف فسح الصوفية المجال لمثل هذه الفكرة في كلامهم، ويتخذ من ذلك مناسبة لمناقشة موضوع "الرؤية" عند علماء الأصول، فيشير إلى اختلاف المواقف بين المعتزلة والحنابلة والصوفية، ومن ثم ينتقل إلى دراسة الرمز عند الفلاسفة.

يساوق هذا النهج عند اليافي ما يذهب إليه في استمداد تعليل الظاهرة من خارجها. وهنا نراه يعلّل الفن بالمجتمع، أو يطابق بين الخصائص الفنية والمراحل الاجتماعية، فيقول: "ولا شك أن قصد الزينة والزخرف في البيان، إنما يوازي تطوراً اجتماعياً عميقاً في الحضارة يحتاج إلى استقصاء تاريخي طويل. ومن المناسب أن نربط، في الحين بعد الحين، بين الخصائص الفنية والمراحل الاجتماعية [٢].

---

[١] ــ اليافي، عبد الكريم، **التعبير الصوفي ومشكلته**، ص٣٧ ــ ٣٨.

[٢] ــ **المصدر السابق**، ص ٢٦.

وعلى الرغم من هذا الإقرار، فإن اليافي لا يركن إلى إنتاج هذه المطابقة. وما محاولة التملّص منها إلا دليل اعتماده لها في سياق التقريب والإفهام وبناء المشابهة التي تفي بغاية المنظور البحثي الواضح في الدراسة الموجَّهة؛ ذلك أنه لا يلبث أن يعقبها بإشارته الذكية، الدالة على بعد النظر والاحتراز النقدي، إذْ يقول: " على أن شرح شيوع تلك المحسنات البديعية بالأسباب الاجتماعية وحدها غير كافٍ، فلا شكّ أن الفن نفسه يحمل في تضاعيفه بذور تطوّره " **(١)**.

لكنّ ما يبدي عنه اليافي، في إشارته السالفة، من عمق النظر النقدي لا يغيّر هنا في منهج التناول الذي يستنيم إلى تقديم موضوعه بدلالة الخارج، بحثاً وتعليلاً؛ ولهذا كانت الشواهد تمرّ عرضاً، أو تستدعى لتصديق المقولات، فيجري عرضها للتسويغ والتدليل، ويتوقف الباحث عند أكثرها للإشارة إلى موضع الاستشهاد بها توقفاً يفي بمقاصد التعريف والإبانة وخدمة السياق المؤسَّس والأفكار المبحوثة وزاوية النظر المتخذة منطلقاً للرؤية والدرس.

ومن دواعي ما يعتمده اليافي، في نظرنا، أن هذا النهج البحثي المعمول به يفتح العلاقة مع المحيط الثقافي للنصوص والظواهر، فينتج ضرباً من المعرفة بالجانبين معاً، أو يزاوج بين إنتاج المعرفة بالظاهرة وإنتاج المعرفة بسياقها التاريخي والاجتماعي والثقافي، وهو يتيح السبيل إلى تلبية المقاصد والحاجات التي ينهض البحث من أجلها، ويعمل على إشباعها، فيوفر سبل الاستجابة لها في قنوات التوصيل الميسّرة، بما من شأنه أن يهيّئ الأرضية المعرفية الضرورية، من خلال توطيد الركائز الأساسية، التي تمكّن نشاط التقبّل في الموقف التعليمي، وتؤمّن تغذيته بالإلمام العام بالسياقين الخارجي والداخلي للظاهرة المدروسة.

من هنا تتأتّى ملاحظة أن هذا الجانب يتعاضد مع ما تقدّمه في الفقرة السابقة، بحيث يغدو فعلاً داعماً للاستراتيجية البحثية، في الوقت الذي يبدو فيه متفرعاً منها، ومشبوكاً بها على نحو عميق، يسبغ على العمل طابع التماسك والانسجام، الذي تتأتّى عنه قوة الربط، وتتحقق به خاصية الاتساق الذاتي. ويمكن تلخيص توجّه اليافي هنا بقوله: " وإذا عمد الصوفي إلى التعبير فلا بدّ له ـــ في تجربة ذوقية عميقة مفردة شديدة الاستحواذ على النفس ـــ من أن يحاول، فيستنفد طاقات الحرف كلها،

---

[١] ـــ عبد الكريم اليافي، **التعبير الصوفي ومشكلته**، ص ٢٧.

ويستترف أنواع دلالات الكلمة، وتفاوت إيماءات اللفظ، وتشعّب طرق البيان، معولاً في ذلك على ثقافته، وعلى التراث الفكري والأدبي الذي انتهى إليه " [١].

الإلماعات النقدية والتقييد المدرسي:

في تأمل كتاب اليافي " التعبير الصوفي ومشكلته " يتعين على المرء أن يأخذ بالحسبان الغاية التي يرومها المؤلّف، وهي التي تتحدّد بها المنطلقات، وتتقرّر، على أساسها، كيفيات التعامل مع المعطيات. وذلك ما يجلوه اليافي في توطئة الكتاب بقوله: " غايتنا في هذه الرسالة أن نجلو جانبين متقابلين من التعبير الصوفي ما انفكّ يلمُّ بهما ويترجّح بينهما، وهما الرمز والتجريد أو التشبيه والتنزيه أو الإشارة والتصريح ". ويبدو أن حرص اليافي على إبراز هذا التوضيح والنصّ عليه في صدارة عمله يعكس من جانبه، ضمناً، أن هناك حدوداً تلزمها الدراسة، وتتوقف عندها، وتتقيّد بها. ويعني ذلك، في الآن نفسه، أنه ينبّه على ضرورة الأخذ بهذا البيان في أفعال الاستقبال والتلقي النقدي لهذه التجربة.

وعلى الرغم من معرفة اليافي بحدود الدراسة المبيّنة وحرصه على إشباع غاياتها من داخل هذا الإطار، فإن تبصّراته العميقة ورؤاه المتجاوزة كانت ما تفتأ تنسرب من سلاسل العبارة، وتمنح قوة إشعاع تنطلق وراء حدود السياج المقيِّد لدائرة البحث، وتلهم النظر النقدي، من بعد، أن يمتدّ بها، ويفضّ مكنونها، ويستهدي بشرارها، إذا ما أراد المضيّ بالبحث شوطاً أبعد، وإذا ما عقد العزم على كشف الأعماق التي يمكن أن يفتح عليها في مسعى آخر من التناول، يجوز التحديدات الخاصة بهذه التجربة الاستكشافية لجانبي التقابل في موضوع "التعبير الصوفي".

سوف نكتفي، ههنا، بالتوقف عند بعض إلماعات اليافي التي يجري كفّها، امتثالاً لضوابط الدراسة، واستجابةً للغايات الموضوعة لها.

أ ــ في معالجة التجريد الصوفي:

في كلامه على التعبير الصوفي، يتساءل اليافي: "كيف يقول الصوفي ما لا يقال ويصف ما لا يوصف"؟، ويذكر، في أثناء بسط التجربة الصوفية وتحليل بعض لحظاتها، أن الصوفي يدرك أن أسرار تجربته "تتأبى على أدقّ أساليب البيان، وتتصعّب على أغنى وسائل التعبير، وتعتاص على ألين وجوه

[١] ــ **المصدر السابق**، ص ٥٩.

القول. وعندئذ يتكلم فإذا هو لا يكاد يبين، وينطق فإذا هو إلى العي والفهاهة أقرب منه إلى البلاغة والفصاحة، ويحاول أن يترجم فإذا هو يتلكأ ويعيد ويتمتم ويجمجم"[١].

هذه اللغة ــ الجمجمة تتصل برفض أساليب البيان، لانغلاقها دون ما يشعر الصوفي بالرغبة في قوله، كما تتصل، من جهة ثانية، بالبحث عن لغة خاصة من طبيعتها الصمت عن العبارة. وهنا تتعين مشكلة التجربة الصوفية تجاه اللغة من حيث هي ضرورة وعائق في آن معاً. لكنّ اليافي يكتفي بتسريب هذه اللمعة في إشارته إلى خاصية الكلام الصوفي، فلا يتوسع في بحثها، ولا يحفر على أسئلتها، ليعود إلى متابعة السياق الشارح الذي يفي بمقتضيات الموقف التعليمي.

وعندما يتحدث عن التجريد، ممثلاً بأسلوب الحلاج، يتوقف عند قصيدة له، منها هذه الأبيات:

لبيّك لبيّك يا سرّي ونجوائي لبيّك لبيّك يا قصدي ومعنائي
أدعوكَ بل أنت تدعوني إليك فهل ناديتُ إياكَ أم ناجيتَ إيائي

(.....)

حبّي لمولاي أضناني وأسقمني فكيف أشكو إلى مولاي مولائي
إني لأرمقه والقلب يعرفه فما يترجم عنه غير إيمائي

في التوجيه نحو هذا الشاهد من شعر الحلاج، يقول اليافي [٢]: " فلنقرأ هذه القصيدة العجيبة الفريدة في هذا الباب لهذا الشاعر الصوفي في ديوانه، نجده في غمرة وجده ينشد، فإذا نشيده استجابة ودعاء وتمتمة وعيّ وإعياء. ثم كأنما يفيق من هذه الغمرة الشديدة، فهو يرثي لنفسه وينوّه بحبه، فإذا كلّ بيانه وترجمته إيماء ".

هذا القول الكثيف المقتصد ينعطف على ما بدأنا به من إشارات اليافي في هذه الفقرة؛ فكلام العيّ هو كلام الغياب عن الواقع والمعقول. والاختلاط الذي يقوم به الكلام، هو من طبيعة التجربة في غموضها واختلاط أعماقها، فكأن نقض مبدأ الانفصال فيها، وهدم صور التعيّن المستقلة واحدتها عن

---

[١] ــ اليافي، عبد الكريم، **التعبير الصوفي ومشكلته**، ص ٦٣.

[٢] ــ **المصدر السابق**، ص ٧١.

الأخرى في الظاهر، يستدعيان لغة من هذا الطور، لا تفضي ولا تنتهي في مدلولات محددة؛ لأنها تصل بما لا ينتهي، وتكونه في طبيعتها القولية ذاتها، فهي لغة إيماء مجالها خارج عن " الحرف " تبدي ولا تقطع، وتشفّ فلا تستنفد.

ومن هنا كانت الترجمة بها تزيد المشار إليه بعداً في عملها على تقريبه، وتزيده غموضاً في معراجها اللغوي إليه، بلغةٍ هي من خارج طور اللغة.

وبمثل ذلك، يمكن الغوص على ما تكنّه حدوس اليافي التي تنقدح على شكل ومضات مفاجئة في سياق الدراسة، كما في التعليق الذي يسجله على شاهد آخر، فيقول [١]: " ألست تجد أن التعبير شديد التجريد، وتعجب لهذه الكلمات من دون شكل ولا نطق ولا صوت، ثم تحار في الحبيب ذي الصفات المتقابلة المتضادة، لا تناله رسوم الصفات ولا غيرها ".

لا شكّ في أن هذه اللغة التي تنفر من محددات اللغة، هي اللغة الصوفية بامتياز، لكن اليافي بدلاً من أن يذهب بعيداً في الحفر والاستقصاء والتأويل، نراه، على خلاف ذلك، سرعان ما يلقي بهذه اللمع، أو سرعان ما يقدح زناد هذه الحدوس، ليعود، بعد ذلك، إلى متابعة سياق التناول المحكوم باستراتيجية "البيداغوجية" كما ذكرنا من قبل.

ومثال ذلك ما يكتفي به، عقب إيراد قصيدة الحلاج، التي أثبتنا بعض أبياتها، إذْ يقول [٢]: " انظر إلى استعماله اسم الفعل (لبّيك) وتكريره له، فكلّ ما يفيده هو الاستجابة مع الحركة الدالة عليها. وتأمل هذا التقابل: أدعوك بل أنت تدعوني (...) وكذلك (أدنو فيبعدني خوفي فيقلقني شوق). مثل هذا التقابل يزيد في تعريفنا خصائص الفكر الصوفي. وإذا أراد النداء لم يجد إلاّ ما يشعر به في نفسه كالسرّ والنجوى والقصد والمعنى والوجود والهمة والنطق والصمت ونفسه كاملة وسمعه وبصره وجملته وتفاصيله".

ب ــ في معالجة الرمز الصوفي:

---

[١] ــ **المصدر السابق**، ص ٧٤.

[٢] ــ **المصدر السابق**، ص ٨٩.

يتخذ اليافي من ابن الفارض مثالاً على استخدام الرمز، في مقابل التجريد عند الحلاج، ويحرص في انتقاله بين الجانبين على إبراز الفارق الأسلوبي، وإيضاح اختلاف خاصيات التعبير لدى كلّ منهما. فإذا كان التجريد مقروناً باستهلاك الصوفي نفسه في خضمّ التجربة، فإن استخدام الرمز والتمثيل وغير ذلك، يتحرّض مع طور الإفاقة ومحاولة التعبير عن الأذواق والمواجيد، وعن شدّة المعاناة في اصطلام التجربة.

في سبيل التدليل على ذلك، يتوقف اليافي عند شواهد متخيّرة يعرض لها من شعر ابن الفارض، ثم يشرح ما فيها من الصور الحسية اللصيقة بشؤون الحب الإنساني، ويخلص منها إلى القول [١]: " وهكذا نفهم طريقة الصوفية في التعبير و إنهم يريدون أن يوحوا بحالاتهم النفسية والوجدانية، ولذلك يسلكون هذا النهج من البيان الرمزي".

مجال الرمز، إذاً، هو مجال الإيحاء لا مجال الوصف والحصر والتحديد، ومنه ما يجري على استعمال شيء حسّي للإشارة إلى أمر لا يدركه الحسّ، ويحتاج المتأمل معه إلى استخلاص حالة ما بسلسلة من تفكيك الغموض. وهنا ينبّه المؤلف على إنشاء الفرق ـــ كما هو عند القوم ـــ بين الإشارة والعبارة، ويعلّل لجوء المتصوفة إلى الاستخدام الرمزي ـــ الإشاري من داخل علاقته بموضوعه، فيقول [٢]: " ولما كانت العبارة موضوعة للإحاطة بالفكرة، وكانت الفكرة هنا أعلى وأجلّ من أن تحصر وأن تحدّ ومن أن يحاط بها، لجأ الشاعر إلى الإشارة ".

لا شك في أن مثل هذه الإلماحات تدلّ على اكتناه اليافي العميق لموضوع التعبير الصوفي، لكنه ـــ كما رأينا من قبل ـــ لا يمضي بتحليل الطبيعة الرمزية في اللغة الصوفية إلى أغوار بعيدة، يمكن أن تضيء عتمات التجربة، أو تجعلنا نستشعر شيئاً إضافياً من عمق ذلك المجهول، كما أنه ـــ بفعل اكتفائه بتلك الإشارات الخاطفة ـــ لا يخوض في تلك المناطق التي تلاقي بين خصائص الرمز وطبيعة التجربة الصوفية نفسها. وحرصاً منه على الملامسة القريبة التي يقتضيها طابع الدراسة ذو الأهداف الإبلاغية التوصيلية، لا يتوغل في الكشف عن الهوّة التي يفتحها أمامنا الرمز، فيجعلنا أمام قاع سحيق

---

[١] ـــ عبد الكريم اليافي، **التعبير الصوفي ومشكلته**، ص ٩٠.

[٢] ـــ **المصدر السابق**، ص ٧٨.

تلازم المجهولات معلومه. ويعني ذلك أنه ــ اكتفاءً بالمسح والتتبّع وإفراد خيوط الموضوع والنظر في عوامل تطوره الذاتية والموضوعية ــ لا يغوص على الروابط الخفية التي تصل الرمز بالمنابع الحيوية للتجربة، ولا يدفع باتجاه ما يمكن أن يتكشف عنه من سبل الربط بين المجالات، أو بين الأقانيم الأساسية كما تتمخض عنها التجربة في رؤية العلاقة بين الله والعالم والإنسان من هذا المنظور، أو من جهتي الرمز والتجريد.

من هنا كنا نجد اليافي منشغلاً عن ذلك، بتحقيق الاستجابة المرجوة لأهداف الدراسة، ومنها الامتلاك التعريفي لمستويات التعبير الصوفي المختلفة، من خلال متابعة الشواهد ومقابلتها بنصوص الثقافة الأدبية والصوفية وأدواتها العاملة في الشرح والتفسير وإنتاج المعرفة بالموضوع. وذلك ما كان يعنى به في تتبّع الاستخدام الرمزي، وفي إبراز المعالم الأساسية التي يقوم عليها التمييز بين جانبي الرمز: الذاتي والموضوعي، والتمثيل لكل منهما، من خلال إدراج الشواهد المناسبة والتوقّف عندها، على النحو الذي يفي بغرض التحصيل والاستخلاص.

جـــ ــ تركيب:

على الرغم من ذهاب اليافي، في عمله هذا، إلى جلاء جانبي التعبير الصوفي المتقابلين، كما يوضّح في مستهلّ الدراسة، فإنه مما لا يخفى على أهل النظر والاختصاص أن هذه القسمة مسوّغة باستراتيجية البحث التي تخدم غاياته الأساسية؛ ولذلك يمكن القول: إن هذين الجانبين متكاملان، ولا سبيل إلى الفصل المطلق بينهما؛ ذلك أن معظم الشواهد تتظاهر على الجمع بينهما، مع استبقاء إمكانية التغليب في طغيان أحدهما على الآخر. ولا يفوت اليافي أن ينبّه على ذلك بقوله **(١):** " على أن الأسلوب المجرّد والأسلوب الرمزي لا يوجد كلّ منهما صافياً صفاءً تاماً بلا شوب، وإنما يغلب على بيان الصوفي أحد الاتجاهين ".

مع الإقرار بما سبق، نلاحظ أن اليافي يفرد المجال لتناول كلّ من أسلوبي الرمز والتجريد باستقلال عن الآخر أو في مقابله، ذلك أن بيان أحدهما يعتمد على نفي الآخر، أو على قيامه بخاصيات ضدية لما يتعرّف به. وأهمّ من ذلك أن اليافي ــ تحت ضغط التوجه العام الذي يحكم البحث ــ لا يلتفت، بعد

[١] ــ اليافي، عبد الكريم، **التعبير الصوفي ومشكلته**، ص ٦٤.

استفراغ الجهد في دراسة كلّ منهما، إلى إنتاج التركيب النافي لضرورات العزل والإفراد في بحث كلّ منهما مستقلاً عن الآخر. وأظنّ أن مثل هذا التركيب من شأنه أن يعيد إنتاج اللحمة بعد التقسيم والفصل بين جانبي التعبير الصوفي. ولعلّ في ذلك ما يعوّل عليه في إعادة النبض الحيوي إلى النصوص غبّ ما نالها من جفاف التخطيط والاصطناع المدرسي، فضلاً عمّا يتأتّى للتعبير الصوفي من مردودية النظر إليه في تكامل جانبيه وردّ واحدهما على الآخر، بما من شأنه أن يعمّق البحث، ويستثمر الإمكانات على نحو أمثل في إنتاج معرفة بخصوصية التجربة، وتقلّب آناتها، وتكسّر مساراتها، وانقلاب اتجاهاتها، في مساوقة درجات التبلّج وصور التجلّي المتغايرة آناً بعد آن[١].

وحتى لا نغالي في ذلك، فنحجب ما ينطوي عليه عمل اليافي من الإمكانات المكبوحة، والرؤى التي تمّ اختزالها، توكيداً لمجرى الدراسة وخطّها العام، نسارع فنقول: إن الباحث ــ على الرغم من التزامه ما قرّره من جلاء جانبي التعبير الصوفي ــ لم يتوانَ، بفضل بصيرته النافذة، عن تسريب الإلماعات التي يتجاوز إشعاعها الحدود المرسومة. ولنا أن نستشفّ ذلك من بعض تعليقاته الكاشفة عن ملكته الذاتية، وعن قوة العارضة التي تجوز إجراء الفصل المتّبع، وإن تبدّى إشعاعها في إطار الإفراد الخاص بهذا الجانب أو ذاك.

نسوق على ذلك مثالاً من كلام اليافي على التجريد، ونقابله بمثال من كلامه على الرمز، لنثبت من خلالهما صحة ما سبقت الإشارة إليه من ثاقب نظره الذي يخترق حدود التقسيم الإجرائي، ويرشّح، من داخل واقع الإفراد، ما يصل ضمناً، بين جانبيه. ففي كلامه على الجانب الأول، جانب التجريد، يقول: " ذلك أن الصوفي يساق في بعض الأحيان إلى رفض التشبيهات والاستعارات كلما وجد نفسه تجاهها، بل ينصرف أيضاً عن مراعاة صحة الألفاظ وانسجامها وإعرابها، فكأنما زلزل كيانه زلزالاً شديداً، فزلزل بدوره كيان الأساليب الصحيحة المتعارفة (...) ودراسة هذا النوع من البيان القوي المنهار، إذا صحّ هذا الوصف المتضاد، تومئ إلى قوة اتجاه التجربة وشدة اندفاعها وعلوّها السامي ".

وفي كلامه على الجانب الثاني، جانب الرمز، يشير في صفحات مختلفة من الدراسة إلى تلك الحالات الروحية العالية التي تضع أصحابها أمام ما لا يحيط به الوصف، وهو ما يتطلب اطّراح أساليب

---

[١] ــ ينظر: سليطين، وفيق، **الزمن الأبدي**، ص ٩٠، ١٠٦.

القول المعمول بها، والبحث عن طرائق أخرى تجوزها وتتعداها. ومن هنا كان إيثار غامض التلويح على واضح التصريح، وخفي الإشارة على جليّ العبارة.

ألا ترى أن زلزلة اللغة هناك تجعل التجريد يلتقي هنا بمجال الرمز الذي يعطل وظيفة اللغة الأساسية ويمنعها من أن تكون ذاتها ؟ أوليس تشويش الأساليب المتعارفة هو فعلاً نوعياً موازياً لتزلزل الكيان الصوفي في حمأة التجربة تزلزلاً يعصف بواقع تناهيه وانحصاره، ويدفع به إلى التفلّت من شروط الضبط والتقييد في تعقل النظام الاجتماعي اللغوي، فيعمل على هدمه وتشويش انتظامه، كما يعمل الرمز على تعكير صفاء اللغة وتعطيل قدرتها على الإفصاح والإبانة، فيكون غموض لغة الرمز مساوقاً لغموض التجربة نفسها؟

الحقّ أن ما ينسرب في كلام اليافي من إلماعات وحدوس بارقة يشفّ عن ذلك، وإن كان يحتاج إلى فكّ مغاليق الإشارة وتثبيت لحظة انقداحها الخاطف. ويعني ذلك، في عمق الوعي النقدي، أن وراء هذا المبذول في التزام التقسيم الذي سارت عليه الدراسة ما يجمع بين جانبي الرمز والتجريد؛ ففي المترعين كليهما يغدو الكلام الصوفي، رمزاً أو تجريداً، تعليقاً لعمل اللغة، وتحويلاً لها، وتحولاً بها في أفق هذا المعراج.

الخاتمة

يتوفّر هذا البحث على نقد الجانب التعليمي، في عمل اليافي المذكور، ويبيّن عدم كفايته، على الرغم من الوظائف التي يؤديها، ذلك أنه، في نحوه العام، يحصر التناول في حدوده القريبة، التي تهتم بالتعريف، والتمييز، والتقسيم، وإنشاء الخلاصات الضرورية للإلمام بموضوع الدراسة. يلازم ما سبق التوجّه إلى نقد الجهد التحليلي للشواهد، وهو ما وقف به الباحث عند دوائر القراءة الشارحة، الموظّفة في خدمة المسعى التعليمي، الذي يطغى ويهيمن، ويوظّف مختلف العناصر من أجل الغاية التي ينعقد لها.

على الرغم مما سبقت الإشارة إليه في هذا السياق، فإن القراءة المقدّمة، لعمل اليافي، لم تكتفِ بتوضيح إطار التناول فيه، بل ذهبت، أبعد من ذلك، إلى تبيّن الرؤى المضمرة، وإلى الكشف عمّا ينطوي عليه جهد اليافي، في بحث مشكلة التعبير الصوفي، من إمكانات الخصوبة، وعمق النظر، وغير

ذلك ممّا يتلامح خلف إشاراته السريعة، التي كان ينصرف عن إشباعها، استجابة للأهداف العامة التي وقف البحث عليها.

وأخيراً، فقد جرى التنبيه، في هذا البحث، على ضرورة ردّ جانبي القسمة المتّبعة، أحدهما على الآخر، بعد استفراغ المؤلف جهده في التمييز والتحديد والتوضيح، من اجل الغوص على المكامن العميقة، التي توحّد بين جانبي التعبير في أفق التجربة الصوفية.

من خلال ما تقدّم، تتبدّى أهمية البحث، في عمله على الرفد والتوسعة والتعميق من جهة، وفي حفزه للدراسات النظرية والتطبيقية، في حقل التصوّف، على تخطّي الطوابع المدرسية الاختزالية، من جهة أخرى، تحقيقاً لمزيد من الكشف وإعادة البناء.

قائمة المصادر والمراجع

١ ــ جودة، عاطف، **الرمز الشعري عند الصوفية**، الطبعة الثالثة، بيروت ــ لبنان: دار الأندلس، ١٩٨٣.

٢ ــ سليطين، وفيق، **الزمن الأبدي**، الطبعة الثانية، دمشق: دار المركز الثقافي، ٢٠٠٧م.

٣ ــ ــــــــــ، **الشعر والتصوف**، (د.ط)، دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، الكتاب الشهري الثاني عشر.

٤ ــ منصف، عبد الحق، **أبعاد التجربة الصوفية**، (د. ط)، المغرب: أفريقيا الشرق، ٢٠٠٧.

٥ ــ اليافي، عبد الكريم، **التعبير الصوفي ومشكلته**، (د. ط)، دمشق: منشورات جامعة دمشق، ١٤٢٠ ــ ١٤١٢ ه، ١٩٩٩ ــ ٢٠٠٠م.

تعبیر صوفیانه و مشکل آن در آیینه نقد

وفیق سلیطین•

چکیده

کتاب «دکتر عبد الکریم یافی» تحت عنوان «التعبیر الصوفی ومشکلته» (بیان صوفیانه و مشکل آن) در میان پژوهش های دانشگاهی ای که به بررسی تعبیر صوفیانه و ویژگی های ذاتی آن پرداخته اند نمونه ای برجسته به شمار می رود. چراکه تاریخ چاپ این کتاب متعلق به سال 1963م می باشد و آن زمانی است که این کتاب بخشی از کتاب دیگر همین نویسنده تحت عنوان «دراسات فنية في الأدب العربي» به شمار می رفت.

این پژوهش به معرفی، نقد، بررسی و نتیجه گیری کتاب مذکور یافی می پردازد؛ هنگامی که ارزش این کتاب بیان می شود همزمان محدودیت های شکل آموزشی آن نیز مورد اشاره قرار می گیرد؛ همان محدودیت هایی که باعث مقید شدن آن در چارچوب استراتژی خاص آن شده است. این جاست که اهمیت مسائل نقدی این کار مشخص می گردد؛ در رویکرد اشاره های مقید آن به مسائل که از ورای شکل آموزشی آن نمایان می شود و در رویکرد فراتر رفتن ازاقدامات کاوش، بررسی و تعمق در پی اهداف مستقیم ابلاغی و ارتباطی که بر پژوهش دکتر یافی در بررسی اسلوبی تعبیر صوفیانه حاکم است. چه اسلوب انتزاعی اش و یا اسلوب سمبلیک که نتایج پایانی پژوهش بیانگر آن است.

کلیدواژه ها: تعبیر، صوفی، انتزاع، نماد، آموزشی.

• ـ استاد گروه زبان و ادبیات عربی دانشگاه تشرین سوریه.

تاریخ دریافت: 1391/11/14هش= 2013/02/02م تاریخ پذیرش: 1392/03/08 هش= 2013/05/29م

The problem of sufit Expression in Criticism

Wafeeq Sleiteen•

Abstract

Abdulkareem alyafi' s book, The Problem of sufi Expression, is a significant turning point in the process of academic studies that have tackled the sufi expression and its characteristics.

The above – mentioned book was published in 1963 as part of Alyafi' s book,Artistic studies in Arabic literature. this research focues on defining, discussing, and criticizing Alyafi' s book

Moreover, this research points out the pedagogical elements that characterized this book and confined it within its strategy. the significance of these critical issues spring from such restrictions to open its restricted signs to other horizons beyond the pedagogical confinements.

Therefore, this research goes beyond mere surveying or following the obvious thread to dive deep after the direct and real issues that underlay much of Alyafi' s study in tackling the two styles of Sufism: symbolism and Abstrationism.

Key words: Expression, Sufism, Abstractionism, symbol, pedagogy.

•- Professor in the Department of Arabic Language& Literature, University of Tishreen, Latakia, Syria.